النابغون فى أوطانهم

حديث عن البحترى

الأستاذ محمود عزت عرفه

[تتمة مانشر فى العدد الماضى]

... وللبحترى فى هذا الشأن حديث عجيب .

فقد كان أحد الذين ارتفعوا بشعرهم من حضيض الجهالة والخمول إلى ذروة النباهة والمجد . ولسنا نجد فى ديوانه على ضخامته مايشير به إلى حياته الأولى فى موطنه « مَنْبج » [1] سوى ماينص عليه من عداوة بعض أهله له ، برغم مايعود به عليهم — وعلى سواهم — من فضل المال والجاه ، والشفاعة لدى الخلفاء ، ورفد العفاة وفك العانين .. وذلك حيث يقول فى قصيدة له :

.. ومن الأقارب من يُسر بميتتى ... سقمًا ، وعزٌّ حياتهم بحياتى
إن أبقَ أو أهلكْ فقد نلت التى ... ملأت صدور أقاربى وعداتى
وغنيتُ ندمانَ الخلائفِ نابهًا ... ذكرى ، وناعمة بهم نشواتى
وشفعت فى الأمر الجليل إليهمو ... بعد الجليل ، فأنجحوا طَلِباتى
وصنعت فى العرب الصنائع عندهم ... من رِفْد طلّابٍ وفك عُناةِ

وحظى البحترى عند المتوكل بأرفع المراتب وأسنى الدرجات فكان شاعره المقرب الأثير لاتندُّ عنه فى الحياة رغبة أو تبعد دونه أمنية .. ولكن شاء القدر مع ذلك ألا تزال نفسه تهفو إلى غرض ما ، فكان ينتابه القلق ويساوره الحنين إلى الإلمام بوطنه منبج ، ولا ينفك يهتف بالمتوكل مستحثاً إياه على قصد هذه البلاد كلما قصد دونها إقليما أو غشى موضعاً :

لو كنت أحسد أو أنافس معشراً ... لحسدت أو نافست أهل الموصل
غشى الربيع ديارهم وغشيتها ... وكلاكما ذو عارض متهلل
فأضاء منها كل فج مظلم ... بسكا ، وأخصب كل واد ممحل
فتى تخيم بالشآم فيكتسى ... بلدى نباتاً من ندالك المسبل؟!

وكأنما شاء القدر — مرة أخرى — أن يلوح للبحترى بتحقيق أمنيته . فاضطرب حبل الأمور على المتوكل فى سامراء بسبب اتساع نفوذ الأتراك واستفحال خطرهم ؛ ولم يكن ليخمد من شوكتهم فى شىء قتله إيتاخ عام ٢٣٥ هـ ، وكان المدبر لفتنتهم والمتولى كبر هذا الأمر فيهم . فصح عزم المتوكل على تغيير عاصمة خلافته والانحياز إلى دمشق ليكون بمنجاة من كيدهم وتطاولهم .. وغدا عليه البحترى — مستحسناً محبذا — يقول :

.. إن دمشقاً أصبحت جنةً ... مخضرَّة الروض عَذَاة البراق
هواؤها الفضفاض غض الندى ... وماؤها السلسال عذب المذاق
والدهر طلق بين أكنافها ... والعيش فيها ذو حواش رقاق
ناظرة نحوك مشتاقةٌ ... منك إلى القرب ووشك التلاق
وكيف لاتؤثرها بالهوى ... وصيفها مثل شتاء العراق ؟!

وأنفذ المتوكل عزمه فى عام ٢٤٣ هـ ، فشخص إلى دمشق ونقل إليها دواوين الخلافة ، ووطن نفسه على المقام بها . فلم يكن عجيباً حينذاك أن نسمع البحترى يقول فى قصيدة له ، وكأنما هو يتنفس الصعداء بعد طول اللهفة وفرط الانتظار :

قد رحلنا عن العرا ... قِ وعن قطبها النكدْ
حبذا العيش فى دمش ... ق إذا ليلها برد !
حيث يُستقبَل الزما ... نُ ويستحسن البلد
سفرةٌ جدَّدتْ لنا الـ ... ـمهوَ أبأمه الجدد
عزم الله للخليـ ... ـفةِ فيه على الرَّشدْ

ويقول فى موضع آخر وهو يحاول تحسين الشام فى عين المتوكل ، وحضه على موالاة المقام بدمشق :

أما دمشق فقد أبدت محاسنها ... وقد وفى لك مطريها بما وعدا

— ولعله يقصد نفسه بهذا المطرى الوافى بما وعد —

إذا أردت ملأت العين من بلد ... مستحسن ، وزمان يشبه البلدا
يمسى السحاب على أجبالها فرقاً ... ويصبح النبت فى صحرائها بددا
فلست تبصر إلا واكفاً خضلا ... أو يانعاً خضراً أو طائراً غردا
كأنما القيظ ولىٌّ بعد جيئته ... أو الربيع دنا من بعدما بعدا

.. وذلك ضمن قصيدة فاخرة مطلعها :

العيش فى ليل (داريا) إذا برَدا
والراح تمزجها بالماء من (بردَى)

على أن السياسة ليست شيئاً يخضع لأهواء الشعراء ؛ فما

(١) بلدة من أعمال الشام إلى الشمال الشرقى من حلب

تلبّث المتوكل بعد استقراره بدمشق إلا ريثما يعد عدته للرجوع إلى سرّ من را ، بعد أن شغب عليه الأتراك فيها وتحركوا فى طلب أرزاقهم ، وكانوا قد أوجسوا خيفة من انحيازه إلى الشام ، وتوقعوا أن يستعين عليهم بسلطان العرب هناك . . .

عاد المتوكل يزعم أنه استوبأ دمشق ، وفى صدره مما جرى غصة [1] ؛ وانهارت آمال أبى عبادة حتى ليبدو من المفارقات الغريبة أن نراه يهنىء المتوكل بهذا العود ، ويستحسن مأتم من إنفاذه فيقول :

لعمرى لقد آب الخليفةُ جعفرٌ ... وفى كل نفس حاجة من قفوله
دعاه الهوى فى سرّ من رآء فانكفا ... إليها انكفاء الليث تلقاء غيله
على أنها قد كان بُدِّل طيبُها ... ورُحِّل عنها أنسُها برحيله
وإفراطُها فى القبح عند خروجه ... كإفراطها فى الحسن عند دخوله
وقد لبست بغدادُ أحسن زيِّها ... لإقباله ، واستشرفت لعُدُوله
ويثنيه عنها شوقه ونزاعه ... إلى عرض صحن الجعفرى وطوله [2]

وقد أصبح تسارى أمل البحترى بعد هذا الحادث أن يلم بموطنه فى زيارات قصيرة خاطفة ، يواكبه فيها من ألطاف الخليفة ومبراته مايرضى غروره ، ويظهر لقومه منزلته وجاهه . وإنه ليخاطب المعتز [3] فى ذلك ، وكان من أحظى الناس عنده ، فيقول :

هل أطلعنّ على الشآم مبجّلاً ... فى عز دولتك الجديد المونق ؟
فأرمّ خلة ضيعةٍ تصف اسمها ... وألمّ ثمّ بصبية لى دردق ؟
شهران إن يسرت إذنىَ فيهما ... كفلا بألفة شملىَ المتفرق

وإن المعتز ليعرف هذا الشعور من نفس البحترى فيرفّه ويكرمه ، ويحمله على الجرد العتاق إلى موطنه منبج ، حيث يلقى هنالك أهله ، ويتعرف حال ضيعته (الضائعة) كما يقول . والخليفة يُصحِبه الطرف والهدايا تحملها عشرة من خيل البريد وفيها بدر المال وخلع الديباج ، وجوادان أصيلان : كميت وأبلق وسيف صقيل فى إهدائه تشريف وتنويه . . وفى ذلك يقول أبو عبادة :

تجانفَ بى نهجُ الشآم وطاعَ لى ... عنانٌ إلى أكناف منبج مطلقُ
أسرُّ صديقا أو أسوء ملاحياً ... وأنشر آلاء بطولك تنطق
حملتَ على عشرٍ من البرْدِ مركبى ... عجالاً عليهن الشكيم المحلق
وأكثرت زادى من بدورٍ تتابعت ... لجُودك فيهن اللجينُ المطرق
ومنتسبانِ للوجيه ولاحقٍ ... كميتٌ يسر الناظرين وأبلق
ومن خلع فازتْ بلبسك فاغتدى ... لها أرج من طيب عرفك يعبق
عليها رداءٌ من حمائل مرهفٍ ... صقيل يزلُّ الطرفُ عنه فيزلق

وبوفاة أبى عبد الله المعتز عام ٢٥٥ هـ أفل نجم البحترى من سماء الخلافة فى سر من رأى . إذ لم يكن موضعه لدى المهتدى أو المعتمد — وقد خلفا المعتز على التتابع — بالموضع الذى يرضى طموحه ، أو يكافىء سابق منزلته لدى المتوكل وابنه . وكان الذى جرى من الأحداث على عهد المتوكل والمنتصر ثم المستعين والمعتز قد خلف فى نفس الشاعر أثراً من اليأس عميقا ، وجعله قليل الثقة بالناس وبالحياة .. يقول الشعر فى مناسباته لأن من واجبه أن يقوله لا لأنه متأثر بما يدور حوله ، ويدت عليه فى أخريات أيامه نزعة قوية إلى الانزواء فى بلدته يراقب منها تيار الحوادث فى صمت واعتبار . استمع إليه يخاطب أبا الصقر إسماعيل ابن بلبل — الذى وزر للمعتمد بين عامى ٢٧٢ و٢٧٨ هـ — فيقول:

بقيت ، فكائن جئت بادىء نعمة ... يقلُّ السحاب أن يجىء مسيلها
وأعطيتَ طلاّبَ النوافل سُؤلهم ... فمن أين لاتعطى القصائد سولها ؟

---

(١) يقول المرحوم الخضرى بك فى محاضراته : بعد أن أقام المتوكل بدمشق أياما أظهر أنه استوبأ البلد ، لأن الهواء بارد ندى والماء ثقيل ، والريح فيها تهب مع العصر فلا تزال تشتد حتى يمضى عامة الليل . وغلت فيها الأسعار وحال الثلج بين السابلة والميرة فبارحها عائدا إلى سامراء . ويظهر أن الأتراك هم الذين حملوه على العودة .

(٢) من قصور سر من رأى ، أنشأه المتوكل عام ٢٤٥ هـ

(٣) المعتز « أبو عبد الله » ابن المتوكل ، يفصله عن أبيه الخليفتان المنتصر والمستعين . ولم يكن للبحترى معهما كبير شأن .